صناعة الوراقة في الدولة الإسلامية وأبرز وراقي المغرب الأوسط

أ. بن عمار الزهرة*

الحمد لله الذي أكرمنا بنعمة الإسلام، وشرفنا بالرحمة المهداة محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وأنزل أعظم كتاب فذكر فيه القلم وما يسطرون. قال تعالى :" ن والقلم وما يسطرون".[1] فكان القلم والورق.

الوراقة كنسخ وتدوين وتأليف وترجمة وكخط (نسخي وحيري حجازي أوكوفي) وكورق بغض النظر عن طبيعته ومصدره وكمخطوطات وخزائن بصرف النظر عن المقاييس المطلوبة في الخزانة المكتبية، وككتبة غير محترفين، فهذه الوراقة بهذه العناصر كلها راحت تتدرج تطورا بدءا من عصر النبوة حتى نهاية عصر بني أمية لتصل الذروة في العصر العباسي.

ففي عصر النبوة والخلفاء الراشدين وظفت الكتابة في تدوين القرآن آنيا، ثم في جمع آياته في مصحف واحد في خلافة أبي بكر الصديق مخافة تفرقها وذهابها بذهاب حفظتها[2]. ثم في جمعه منسوخا في أربع نسخ في خلافة عثمان بن عفان – رضي الله عنه – وذلك لجمع الناس على قراءة واحدة أوحرف واحد، فهذا التوظيف كان دينيا وبتوصية من النبي الكريم محمد – صلى الله عليه وسلم – فنحن أمام أول مخطوط ديني مقدس في هذه المرحلة التأسيسية لدولة عربية إسلامية، وهوالقرآن الكريم .

وفي سياق ذلك كانت تكتب من قبل الرسول – صلى الله عليه وسلم – رسائل للملوك والأمراء من العرب والعجم قصد تبليغ الدين الجديد. وكذلك العهود لمن أسلم من القبائل ولمن صالحوه في حرب.

وإذا كانت الفتوحات العربية الإسلامية قد بدأ منحناها يصعد بشكل متسارع في فترة الخلفاء الراشدين فإنا نجد عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– يؤسس ديوان الجيش حفاظا على حقوق العساكر ومصالحهم.

*كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية جامعة وهران

كذلك ظهر في هذه الفترة ما يسمى أدبيا بالرسائل الديوانية التي كانت توجهها الحكومة المركزية لولاة الأقاليم بحكم اتساع رقعة الدولة الإسلامية.

والخلاصة، أن الكتابة العربية الإسلامية كانت محدودة في هذا العهد وذلك لأسباب موضوعية، ومنها غلبة الأمية والانشغال بالتأسيس لدولة عربية إسلامية تقوم على نبوة جديدة وذلك على كافة المستويات.

أما في العصر الأموي، فقد كثر الإقبال على القراءة والكتابة، وأصبح كثير من المساجد مراكز تعليمية للعلوم اللسانية والدينية، وبالنسبة للنسخ والتدوين فقد ذكر أنه في معركة صفين رفع نحوخمسمائة نسخة من القرآن الكريم.

وتم أيضا نقل الدواوين الحكومية إلى اللغة العربية. ولن تفوتنا الإشارة إلى أنه في هذا العصر قد بدأت حركة النقل والترجمة، وأول من فعل ذلك، خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة 85هـ الذي زهد بالخلافة حبا في العلم، وانصرف يؤلف ويترجم كتب الكيمياء والطب والنجوم، وحتى الخليفة الثامن عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي المتوفى سنة 101هـ رأيناه يأمر بنقل بعض الكتب باليونانية إلى العربية.

وجاء العصر العباسي ونشطت حركة التأليف والترجمة، وعظمت صناعة الورق وتبع ذلك ظهور حرفة الوراقين، وفي هذا العصر ظهرت صناعة الكاغد الذي عمل بشكل فعال في ازدهار حرفة الوراقة، والخط العربي سجل تطورا عظيما، وعلى أسس علمية دقيقة، وهذا بفعل المد الحضاري الذي اكتسح عاصمة الدولة العربية الإسلامية ببغداد وبقية حواضرها المترامية هنا وهناك شرقا وغربا.

يقول ابن خلدون في هذا المعنى: "ثم طما بحر التأليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه، وضاق الرق عن ذلك. فأشار الفضل بن يحي[3] بصناعة الكاغد".

وهنا يطرح السؤال التالي: ما المواد التي استعملت للكتابة في العصور القديمة ؟ اختلفت المواد التي اتخذتها الأمم الغابرة للكتابة عليها وهي مواد مهما قيل في بقائها على مر السنين، فإنها من وجهة عملية لا يمكن اتخذها على الدوام، لقلتها ولثقلها وكبر حجمها.

ومن أقدم هذه المواد "الطين" فكانوا يصنعونه قوالب، ويكتبون عليه في حال طراوته ثم يجففونه أويطبخونه بالنار.[4]

ومنها أيضا "الحجر" وهومادة أقوى من الطين على البقاء غير أنها أثقل وزنا.[5]

وهاتين المادتين – أعني الطين والحجر – لا يمكن الإكثار منهما لصعوبة حملهما وضخامة حجمهما.

ثم خطا البشر خطوة واسعة في تحسين مواد الكتابة حين أخذوا يكتبون على أوراق "البردي"[6] وكان الورق يتخذ من لبابه، يشق شرائح تجعل منها صحائف بالضغط ثم تصقل بآلة من العاج، وكانت الصحائف بعد ذلك يوصل بعضها ببعض فتكون لفائف يسهل استعماله.[7]

وأوراق البردي هذه كانت تعرف في كثير من المراجع القديمة باسم القراطيس، فقد نوه البيروني بورق البردي في قوله: "إن القرطاس معمول بمصر من لب البردي يبرى في لحمه، وعليه صدرت كتب الخلفاء إلى قريب من زماننا ..."[8]

والقراطيس واحدها القرطاس، وقد ورد كلاهما في القرآن الكريم قال تعالى: "ولونزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ."[9]

وقال – عز وجل –: "وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ."[10]

ولم تقتصر مواد الكتابة على ما ذكر، بل اتخذ الناس من جلود الحيوانات مادة حسنة للكتابة، تعيش دهرا طويلا قبل أن ينالها البلى. غير أن ثمنها الغالي حدد من استعمالها وحصره في نسخ القرآن والوثائق الرسمية والعقود وغير ذلك.[11]

كما استعمل قدماء الهنود سعف النخيل للكتابة، فقد كانت سعفة النخيل تقطع على طول جدعها، ثم تقسم إلى قطع بأبعاد مختلفة، وبعد ذلك تغلى بالماء ثم تجفف وتصقل أخيرا. والكتابة تتم على الوجهين.[12]

وحينما توصل الناس إلى صنع الورق، ورؤوا منه مادة خفيفة لينة، سهلة الحمل والنقل، ولا تتطلب حيزا كبيرا، أكثروا منه إكثارا عظيما، جعل من الكتب أضعافا مضاعفة.

ويرجح المؤرخون أن الصينيين كانوا أول من عرف صناعة الورق. وكان الورق الصيني يستورده التجار العرب الذين كانوا على اتصال تجاري قديم ببلاد الشرق الأقصى.

وأول مدينة إسلامية صنع فيها الورق كانت سمرقند التي فتحها العرب سنة 87هـ. ولقد ضربت الأمثال بورق سمرقند نظرا إلى جودته ونفاسته. وعمت شهرته الأقطار، وظلت تمد البلاد الأخرى بما تنتجه معاملها من أنواع الورق.

غير أن صناعة الورق لم تلبث أن خرجت من مكمنها وتسربت إلى بعض البلدان الإسلامية، وفي طليعتها مدينة بغداد التي ازدهرت فيها هذه الصناعة بما كان يرى فيها من معامل وحوانيت.

وبعد أن اتسع نطاق صناعة الورق في العراق، انتقلت منه إلى بلاد الشام، وكانت طرابلس الشام من المدن التي فاقت ما سواها في هذه الصناعة.

ثم انتقلت إلى دمشق، واشتهرت بمعامل ورقها اشتهارا بعيدا، وكانت تجارة الورق الشامي رائجة رواجا عظيما، فقد كانت أوربا الشرقية تبتاع ورقها من بلاد الشرق الأدنى مباشرة.[13]

ولم يبق صنع الورق مقصورا على العراق والشام، بل تعداها إلى ديار النيل، فاشتهرت فيها معامل الورق التي أجادت صنعه ووفرت كمياته.

ثم انتقلت صناعة الورق من ديار الشرق – العراق والشام ومصر – إلى ديار الغرب، فصار يصنع في جزيرة صقلية ومراكش والأندلس، ومن هذه البلدان انتقل إلى ديار الإفرنج الأخرى .

إلا أن ورق بلاد الغرب كان أقل جودة من نظيره – ورق العراق والشام ومصر – [14] فقد كان الورق البغدادي أجود أنواع الورق وأكبره سعة، وكان مخصوصا لكتابة المصاحف، ولا يستعمل فيما عدا ذلك من أغراض الكتابة سوى مكاتبة كبار الملوك. ودونه في الرتبة الشامي وهوعلى نوعين، نوع يعرف بالحموي وهودون القطع البغدادي، ونوع دونه في القدر وهو المعروف بالشامي وقطعه دون القطع الحموي. ودونهما في الرتبة الورق المصري، وهوأيضا على قطعتين، القطع المنصوري وقطع العادة، والمنصوري أكبر قطعا وقلما يصقل وجهاه جميعا، أما العادة، فإن فيه ما يصقل وجهاه جميعا ويسمى في عرفي الوراقين المصلوح.[15]

ولسنا في حاجة للإشارة إلى أنه لابد من توافر الكتاب في نسخ متعددة حتى يتسنى للمستفدين الحصول على نسخ منه إما عن طريق الشراء أوعن طريق المكتبات التي تعمل على اقتناء نسخ من هذا الكتاب. وإذا كانت المطابع في العصر الحاضر تقوم بمهمة توفير الكتاب في نسخ متعددة، فإن الوراقة في العصر ما قبل الطباعة هي التي كانت تقوم بهذه المهمة.

والوراقة كما عرفها ابن خلدون هي: " انتساخ الكتب وتصحيحها وتجليدها وسائر الأمور الكتبية[16] المتعلقة بالكتب، كالأقلام والورق والحبر وغيرها. وكان المشتغلون بنسخ الكتب يعرفون في تراثنا الإسلامي باسم الوراقين.

قال السمعاني: "الوراق اسم من يكتب المصاحف وكتب الحديث وغيرها وقد يقال لمن يبيع الورق وهوالكاغد ببغداد الوراق أيضا.[17]

وقد اتخذ بعض المؤلفين وراقين لهم، كما اشتغل بعض المؤلفين بالوراقة. ونستطيع أن نقسم هؤلاء الوراقين إلى هذه الفئات الثلاث:

أ– الوراقون المحترفون : وهم جماعة من الناس اتخذوا من الوراقة مهنة يرتزقون منها عن طريق بيع نسخ من الكتب التي يكتبونها بأيديهم، وكانت أجرة النسخ تغلووترخص وتختلف باختلاف الأقلام وحسنها وصحة النقل والضبط، وتزيد أوتنقص بنسبة تغير قيم النقود وصرف الدنانير بالدراهم، وربما غلت أيضا بحسب سرعة النسخ أوبطئه. لما أراد الشافعي تحصيل كتب محمد بن الحسن بأسرع وجه قال: "جئت إلى منزلي ووجهت إلى كاتبه بمائة دينار وقلت اجمع الوراقين الليلة على كتب محمد بن الحسن وانسخها لي، فكتبت لي ووجه بها إلي.[18]

ومن هؤلاء الوراقين، أبوالقاسم بن بنت منيع، فيروي أنه ذهب يوما إلى سعيد بن يحي بن سعيد الأموي يسأله الجزء الأول من كتاب المغازي الذي ألفه ابن إسحاق المؤرخ ليورقه، فأعطاه له، فطاف أبوالقاسم به، وبدأ بأبي عبد الله بن مغلس وأراه الكتاب، فدفع إليه عشرين دينارا، وقال له: أكتب لي نسخة، ثم طاف بعده ببقية يومه، فلم يزل يأخذ من عشرين دينارا إلى عشرة دنانير وأكثر وأقل إلى أن حصل معه في ذلك اليوم مئتا دينار، فكتب نسخا لأصحابها بشيء يسير من ذلك واستفضل الباقي.[19]

ب – وراقوا المؤلفين: وهم الوراقون الذين كانوا ينسخون الكتب لمؤلفين معينين، وكانوا يعملون تحت أيديهم، ومن هؤلاء الوراقين، زكريا بن يحي الذي اتخذه الجاحظ وراقا له، حتى أنه عرف باسم وراق الجاحظ.[20]

كما اتخذ الواقدي المؤرخ كاتبا له هومحمد بن سعد صاحب كتاب الطبقات الكبرى والذي عرف فيما بعد باسم كاتب الواقدي[21] وربما استدعى أحد المؤلفين وراقا أوأكثر لينسخ احد كتبه أوكتب غيره.

ج – المؤلفون الوراقون : وهم جماعة من المؤلفين كانوا ينسخون كتبهم وكتب غيرهم من المؤلفين. فكان أبوالقاسم الحارث بن علي – توفي في القرن الرابع الهجري – وراقا يبيع الكتب ويورق للناس، وله تأليف محكم وكتب مشهورة، ذكر منها ابن النديم تسعة كتب.[22]

وكان منتخب الدين أسعد بن محمود العجلي الشافعي (ت 600هـ) من الفقهاء الفضلاء الموصوفين بالعلم والزهد، لا يأكل إلا من كسب يده، وكان يورق ويبيع ما يتقوت به.[23]

وكان إلى جانب هذه الفئات الثلاثة السابقة، فئة رابعة تضم الوراقين العاملين في المكتبات، والذين كانت مهمتهم هي توفير نسخ من الكتب لتزويد هذه المكتبات بها. ومن هؤلاء علان الشعوبي – من وفيات القرن الثالث الهجري – الذي كان ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون.[24]

هذه هي فئات الوراقين الذين كانوا يقومون بالدور الذي تقوم به المطابع في العصر الحاضر، وبالطبع لا نستطيع أن نقطع بأن الوراقين الذين ينتمون إلى إحدى هذه الفئات كانوا يعملون في حدودها ولا يخرجون منها، فقد مر بنا انه من الممكن أن يتكسب المؤلفون من الوراقة، مثلهم مثل لوراقين المحترفين، كما أنه من الممكن أن ينسخ وراقوالمؤلفين كتبا لأشخاص آخرين وهكذا.

ومن أبرز وراقي العصر الحديث بالمغرب الأوسط خاصة:

الحاج علي بن القيم : كان هذا الشيخ نساخا وجماعا للكتب أيضا رغم ترحاله الكثير. وقبل أن نتحدث عنه ناسخا نقول إنه جمع مكتبته من النسخ ومن الهدايا، ولا نظن أنه كان يشتري الكتب نظرا لفقره.

والحاج علي بن القيم من مواليد قمار في أول القرن الثالث عشر الهجري، وتوفي حوالي 1908م. وهوالحاج علي بن محمد بن مبارك المعروف بالقيم (بكسر القاف ومدها). وما تزال به بقايا مكتبة يبدوأنها كانت هامة، وهي عند ورثته في قمار. وقد ضاع جلها وتآكل الباقي المحفوظ في صناديق وحقائب. وكان الشيخ علي حاذقا في فن النسخ الذي كان يتكسب منه، فينسخ الكتب ويبيعها، وكان بعض الأعيان يطلبون منه نسخ كتاب معين فيفعل ويأخذ على ذلك أجره، وهكذا.

وأثناء تنقلاته كان بعض الأعيان يهدونه الكتب المطبوعة ذات الأجزاء أحيانا، ولعلهم كانوا يهدونه مخطوطات أيضا. وكان بعضهم يحبس عليه الكتب تحبيسا، ففي سنة1324هـ /1907م حبس عليه الحاج الأخضر بن محمد بن الطيب، باشاغا الأرباع، كتاب المدونة المطبوع في أربعة اجتزاء. كما حبس عليه السيد النوي بن

قندوز كتاب شرح عبد الباقي الزرقاني على مختصر الشيخ خليل. وحبس عليه السيد مسعود بن الحاج النوي جميع اجزاء حاشية الدسوقي على الدردير في أربعة أجزاء مطبوعة أيضا وتاريخ التحبيس هو13 شوال 1326هـ.

ومن آثار المكتبة شرح بهرام على مختصر خليل، وهوشرح يعود إلى سنة797 هـ وأما نسخه فيعود إلى حوالي قرن بعد ذلك (890)، ونسخة من الدرة النحوية لابن يعلي الفاسي، وهي من نسخ محمد المهزيل (المزيلي ؟) بن عبد الرحمان بن عبد الله بن أحمد الدائج بن علي الغريسي عام 1140هـ.[25] وشرح الأجرومية للراعي الأندلسي منسوخ بالجزائر عام 1140هـ.

وفي المكتبة أيضا بعض المراسلات، منها رسالة مرسلة إليه من بسكرة فيها بعض أسماء علماء الوقت مثل الشيخ أحمد بن دغمان سنة 1295هـ.

أما الكتب التي نسخها الحاج علي وكانت لها آثار في بقايا المكتبة، فهي كتاب في الفقه نسخه سنة 1291هـ في قمار. ونسخة من كتاب (الترح في منظومة ابن فرح) سنة1322هـ، وكتاب الهيئة لعبد الرحمان الفاسي 1302هـ. ولكن الكتب التي نسخها الشيخ تذهب عادة إلى أصحابها، ولا يبقى له منها إلا بعض التواريخ والآثار الدالة عليها فقط.[26]

ولا نستطيع أن نبني بسهولة حياة هذا الشيخ الجوالة الذي مهر في علم النسخ إلى أخريات أيامه رغم وجود المطابع، ولكنا نقول إن مهارته قد تكون راجعة إلى جمال خطه وإتقانه. أما حياته فما تزال مجهولة عندنا.[27]

والظاهر أنه تعلم في قمار وتونس (نفطة؟)، وقد أدى فريضة الحج كما يدل اللقب الديني المضاف إلى اسمه ولكن نعرف عن بعض الأماكن التي أقام فيها أوتردد عليها وبعض تواريخ ذلك. وحسبما وجدناه مسجلا في أوراقه المحفوظة، وعلى بعض نسخ المكتبة، فإن الشيخ قد زار البلدان والمناطق الآتية في أوقات مختلفة : العاصمة 1302هـ، ولعله زارها أكثر من مرة ولكن ذلك هوما وجدناه مسجلا[28] ونفس الشيء يقال عن بعض الأماكن التي سنذكرها، وهي سوق أهراس التي كان بها في ذي القعدة سنة 1299هـ، حسب نسخة بخطه جاء فيها: "حين غربتني عن أهلي، وذلك لامتحان الزمان واحتياجي إلى الله. "وهذا تعبير قد يكون فيه تلميح إلى غربة واضطرارية لأسباب سياسية أو اقتصادية، لأن ذلك معنى الابتلاء الذي أشار إليه وحاجته إلى معونة الله. وكثيرا ما وجدناه يقصد الأوراس ولا سيما بلدة زوينة ومنعة، وكذلك بسكرة، إضافة إلى نفطة بتونس. وكان ربما من أتباع الطريقة القادرية، لأنه ذكر عدة مرات زاويتين ترجعان إلى هذه الطريقة وهما زاوية ابن عباس بالأوراس (منعة)، وهي

قادرية ، وزاوية سيدي الحسين بنطفة، ولعلها هي زاوية الشيخ الحسين بن إبراهيم، وهي أيضا قادرية، وكان الحسين أخا للشيخ الهاشمي صاحب زاوية عميش.[29]

أطلنا عن قصد في الحديث عن الحاج علي بن القيم لأنه من أبرز النساخ المعروفين في عهد الاحتلال. ولكن النساخة عانت في هذا العهد نتيجة ظهور الطباعة وتقدمها. ولم يسبق اللجوء إلى النسخ إلا عند انعدام المطبوع أو الاحتفاظ بنسخة خطية تكريما للخط الجميل عند المحافظين على هذا الفن، سيما في المصاحف التي يتفنن النساخ في إخراجها وتذهيبها وزخرفتها. وقد كان بعض الناس يكرهون، وربما يحرمون المصاحف المطبوعة بحرف المطبعة ويفضلون عليها خطوط اليد.[30]

وفي زواوة وبجاية اشتهر **محمد الطاهر بن محمد السعيد بن إسماعيل الزواوي الوغليسي** بفن النساخة. وكان قد عاش حتى أدرك الاستقلال (1873 – 1969). ومن خطه عدة نسخ من كتاب علي بن فرحون في الأنساب وكتاب ابن أبي جمرة في الحديث وشوارق الأنوار للورتلاني، وغيرها.[31]

ويذكر الشيخ المهدي البوعبدلي أن **الشيخ البشير محمودي البرجي** خطاط شهير. وأنه ورث خزانة كتب أسلافه، وكان كلما اطلع على وثيقة هامة في هذه المكتبة أطلع عليها البوعبدلي. ولأريحته استغله بعض الناس فبذر مكتبته إذ كانوا يستعيرون منه الكتاب ثم لا يرجعونه إليه. ولم يذكر البوعبدلي هل كان الشيخ البرجي ينسخ الكتب لنفسه أولغيره أيضا.[32]

وكان **الشيخ محمد أرزقي بن محمد السعيد المهداوي أمغاز** قد اشتهر بالنساخة أيضا. وكان حيا سنة 1295هـ. وكانت عائلته من عرش بني عباس بوادي بومسعود (الصومام) أصلا ثم استوطنت الجزائر. وذكر له علي أمقران عدة منسوخات في الكتب المدرسية القديمة مثل شرح خالد الأزهري على مقدمة الأرجومية ومجموعة من كتب الدين والتصوف مثل الاستغاثات والأدعية.

ويذهب علي أمقران إلى أن كل أبناء ابن داود خطاطون ونساخون. وقد تركوا آثارا بذلك، وأن أكثر من نصف مكتبة هذه العائلة مخطوط. وكان جده محمد السعيد السحنوني المتوفى سنة 1914م شديد الولع بالنساخة أيضا، ولا سيما نسخ المصحف الشريف والكتب المتداولة عند الطلبة، وكان له خط واضح مقروء بسهولة. وكان الجد المذكور غير مهتم بالتأليف ولذلك كرس اهتمامه للنسخ.[33]

وفي قسنطينة اشتهر **محمد الصالح العنتري** بحسن الخط. وهومن عائلة كانت فيما يبدوتشتغل بالخطاطة والنساخة إذ وجد مجموعا بخط أحمد بن محمد العنتري (ربما هو والد محمد الصالح) ويرجع إلى سنة 1223هـ/1808م ويتضمن خلاصات لكتب وأخبار ومختارات في السياسة والخطابة والرسائل، منها كتاب سلوك المسالك في تدبير الممالك لابن أبي الربيع، ومجموعة من القصائد في المراثي لأدباء تونس.[34]

وكان أحمد العنتري كاتبا موظفا عند الحاج أحمد، باي قسنطينة، وقيل أنه تخلص منه في ظروف غامضة متهما إياه بأخذ الرشوة من الفرنسيين. أما ابنه محمد الصالح فقد ارتفع مقامه عند رئيس المكتب العربي البارون بواسوني وأصبح من كتاب المكتب العربي لحسن خطه.[35]

وقد عرفت **عائلة ابن صارمشق** في تلمسان بجودة الخط والنسخ والرسم والهندسة. وكلها فنون متصلة ببعضها . وأثرت هذه العائلة بفنها على المنطقة فوجدت آثار ابن صارمقش في معسكر وغيرها، وكان أحد أفرادها يقيم بالجزائر سنة 1859 م.[36]

وكان **الحاج الباهي العنابي** من أبرز النساخين والخطاطين أيضا وكان يوقع منسوخاته بعبارة "خديم الطلبة" أي العلماء والمتعلمين. ويغلب على الظن أن إقامته كانت في قسنطينة وليس في عنابة. ومن منسوخاته، نتيجة الاجتهاد لأحمد الغزال وكفاية المحتاج لأحمد بابا، كلاهما نسخه لمحمد العربي بن عيسى، ناظر الأوقاف بقسنطينة عندئذ، وقاضيها زمن الحاج أحمد باي. وكانت مكتبة محمد العربي بن عيسى إحدى المكتبات الخاصة التي عاث فيها الجنود الفرنسيين عبثا وفسادا.[37]

وعرف الشيخ أبويعلى الزواوي بنسخ الكتب أيضا وكذلك بجودة الخط. ومن أعماله البارزة نسخه للمصحف الشريف. وأبويعلي هوالذي انتقد بعض معاصريه الذين عاشوا بمهنة الخطاطة والنساخة للكتب بالحروف العربية حتى استغنوا واشتروا المنازل ونحوها، ومع ذلك علموا أولادهم اللغة الفرنسية ولم يدخلوهم الكتاتيب القرآنية ولا الزوايا. وهو يقول عنهم إنهم عاشوا بالعربية وحادوا عنها بأولادهم.[38]

المكتبات في الدولة الإسلامية:

ويطلق عليها أيضا خزائن الكتب، ذلك لأنها ظهرت أولا في بداية تكونها ضمن الأماكن الملحقة بالمساجد والجوامع. غير أن تسارع الأحداث وتطور الحياة الثقافية عامة بفعل حركة التأليف والترجمة وتغير أنماط التدريس وطرائق البحث كان من الأسباب الهامة في البحث عن إيجاد صيغة جديدة تكفل اهتماما أكبر بمحبي

العلم، فكانت خزائن الكتب العامة أو الخاصة أوتلك التي كانت تابعة للمدارس والتي بدأت في الظهور مع أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجري.

أما النوع الأول فيمكن القول أن أشهرها هي المكتبة التي ظهرت ببغداد مع أواخر القرن الثاني الهجري والتي أطلق المؤرخون القدامى عليها "بيت الحكمة " تارة و"خزانة الحكمة " تارة أخرى، والتي ينسبونها تارة إلى الرشيد وتارة إلى المأمون. غير أنه على الرغم من ارتباط "بيت الحكمة" بأوج ازدهارها في زمن المأمون العباسي الذي جمع لخزانتها أهم الكتب الموجودة في عصره، وأمر المترجمين والنقلة أن ينقلوا إلى العربية أهم المخطوطات اليونانية والسريانية، فإن الدلائل التاريخية تثبت أن مؤسسها الفعلي كان هارون الرشيد العباسي. فقد ذكر ابن النديم أن أبا سهل الفضل بن نوبخت (كان حيا قبل 193هـ) كان في خزانة الحكمة لهارون الرشيد، ولهذا الرجل نقل من الفارسي إلى العربية ومعوله في علمه على كتب الفرس.[39]

وكان لبيت الحكمة مركز علمي ومكتبة عظمى عرف بدوره الخطير في الحياة الثقافية والدينية والعلمية للمسلمين طيلة قرنين كاملين من الزمن. وظل العلماء يترددون عليها حتى نهاية القرن الرابع الهجري حيث انعدم ذكرها عند المؤلفين والبيبلوغرافين بعد ابن النديم وأضيفت في أغلب الظن إلى إحدى مكتبات الخلفاء أوتقاسمها سلاطين السلاجقة بعد ذلك وعرفت كتبها التي جمعت في خلال قرنين من الزمان طريقها إلى مكتبات جديدة.[40]

أما بمصر فقد اهتم الخلفاء الفاطميون أيضا بخزائن الكتب، إذ تذكر المصادر أن العزيز بن المعز لدين الله المتوفى سنة 386هـ قد أنشأ مكتبة عامة بالقاهرة ألحقها بقصره وكانت تضم من الكتب ما يفوق الستمائة ألف مجلد في كل الأصناف المعرفية من حديث وفقه وتاريخ وفلك وكيمياء، عدا المصاحف. ومن شدة اهتمامه بالكتب والنسخ أوكل العزيز تسيير دار كتبه إلى أحد علماء عصره هوأبوعبد الله محمد بن إسحاق الشابشتي صاحب كتاب "الديارات" المتوفى سنة 390هـ.

وقد ظلت هذه الخزانة موجودة حتى مجيء صلاح الدين الأيوبي إلى سدة الحكم في مصر سنة 567هـ فأمر حسبما تذكر المصادر التاريخية ببيعها لتعارضها لمبادئ أهل السنة وقد خصص لذلك يومين في الأسبوع واستمر الأمر لمدة عشر سنوات كاملة.[41]

وتفرقت كتب الخزانة بين الأيدي وفي كل الأمصار الإسلامية آنذاك. وكان من بين الذين أخذوا أحمالا منها العماد الكاتب الأصفهاني الذي ذكر أن خزانة الفاطميين كانت مشتملة على قريب من مائة وعشرين ألف مجلد فيها من

الخطوط المنسوبة مما اختطفته الأيدي، وإنه نقل منها ثمانية أحمال إلى الشام. وما بقي منها إلى عهد المماليك باعه الطلبة أثناء المجاعة التي اجتاحت الديار المصرية نتيجة القحط والأوبئة عام 1348م (القرن الثامن الهجري).[42]

أما بالغرب الإسلامي فقد أنشأ المغاربة والأندلسيون مجموعة من هذه الدور كان أعظمها على الإطلاق مكتبة قرطبة الشهيرة التي كونها الخلفاء الأمويون بالأندلس. وقد شرع في تكوين هذه المكتبة الخليفة الحكم الثاني المنتصر بالله الذي استعان بوكلاء انتشروا في العالم الإسلامي يجمعون الكتب حتى بلغ ما احتوت عليه هذه الخزانة أكثر من أربع مائة ألف مجلد. وكان الفهرس المشتمل على عناوين كتبها وأسماء مؤلفيها مكونا من أربعين كراسة كل كراسة منها تشتمل على خمسين ورقة. وقد ضاع كل أثر لهذه المكتبة الضخمة بعد سقوط غرناطة في 1492م.[43]

أما فيما يتعلق بدور الكتب الخاصة: فيرجع تاريخ أقدم مكتبة إلى عصر خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان المتوفى في سنة 85 هـ ثم أقام علي بن يحيى المنجم – وكان ممن جالس الخلفاء – حوالي منتصف القرن الثالث الهجري، خزانة كتب في ضيعته، وسماها "خزانة الكتب". وكان يقصدها الناس من كل بلد، فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف المعرفة.

وتذكر المصادر أسماء عديدة ممن كان لهم الفضل في إنشاء مكتبات بالمشرق العربي ووضعها تحت تصرف القراء، ومنهم الوزير الصاحب بن عباد المتوفى سنة 384 هـ، والذي قدرت محتويات مكتبته حمل أربعمائة جمل أوأكثر. وكان فهرس كتبه يقع في عشر مجلدات وهي أكثر من كل ما في مكتبات أوروبا العامة والخاصة مجتمعة في العصر الوسيط.[44]

وعرف من العلماء والكتاب أيضا امتلاكهم لمكتبات مثل الواقدي المؤرخ صاحب كتاب " المغازي " وأبي القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي الفقيه الشافعي المتوفى عام 323هـ، الذي أسس دارا للعلم في بلده، وجعل فيها خزائن كتب من جميع العلوم لا يمنع دخولها أي طالب علم، وإذا جاء غريب يطلب الأدب وكان معسرا أعطاه ورقا ورقا. وكان يجلس فيها إلى الطلاب يملي عليهم من شعره وشعر غيره أويقص عليهم حكايات مستطرفة أوطرفا من العقد وما يتعلق به.[45]

على أن أشهر مكتبتين خاصين لعالم أوكاتب هما مكتبتي الفيلسوفين الكندي والرازي اللذين قاما على أساس محتوى مكتبتيهما بوضع فهارس وتطوير علم تصنيف الكتب والعلوم بصفة خاصة. يقول ابن النديم عن

الرازي (محمد زكريا251 – 313هـ) على لسان أحدهم: "ولم يكن يفارق المدارج والنسخ، ما دخلت عليه قط إلا رأيته ينسخ، إما يسود أوييبض".[46]

ويذكر له ابن النديم مصنفات خاصة به تفوق المائة وخمسين مؤلفا في شتى أنواع المعارف.

وكذلك كان شأن الكندي (الملقب بفيلسوف العرب) في حبه للكتب والمكتبات، حيث اشتهر بمكتبته المسماة "الكندية" التي حوت من الكتب الآلاف من أجود ما صنف في شتى المعارف. ويظهر مما نقله ابن النديم عن مؤلفاته أن الكندي كان قد وضع لمكتبته فهارس مفصلة عن محتويات مكتبته تتماشى والترتيب الموضوعي.[47]

ولقد عرف نوع آخر من المكتبات غير التي تم ذكرها وهوما ارتبط بالمدارس وقد حل هذا النوع خاصة في الشرق محل مكتبات قصور الخلفاء ودور العلم.

وأهم هذه المدارس، سلسلة المدارس النظامية التي أنشأها الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي في أواسط القرن الخامس الهجري. وكذلك مدرسة المستنصرية في بغداد. أما أول دار حديث فهي دار الحديث النورية التي أنشأها في دمشق السلطان نور الدين محمود سنة 557هـ.

أما بالمغرب العربي، وتحديدا بالجزائر، فلم تذكر المصادر عن وجود ما يسمى بالمكتبات الأميرية أوالسلطانية على غرار ما كان ببغداد أوالقاهرة، ذلك لأن الولاة العثمانيين لم يشجعوا على التأليف ولا على جمع الكتب "لأنهم كانوا في أغلبهم جهلة لا يعرفون القراءة والكتابة.[48]

لذلك فإن جل ما عرف من مكتبات خلال العهد العثماني كان متسما بطابع خاص أي مكتبات خاصة. وكانت كثيرة بكثرة عدد من وقف حياته على جمع واقتناء الكتب.

أما ما كان يقصد بالمكتبات العامة آنذاك هوما كان ملحقا بالمساجد وخصوصا الزوايا التي كانت مفتوحة للطلبة والقراء.

وبالإضافة إلى ما كان من حركة تأليف، عرفت المدن الجزائرية، قبيل الاحتلال الفرنسي، رواجا واسعا للكتب وبالتالي المكتبات، وكان السبب في ذلك هوهجرة الكتب إلى الجزائر مع هجرة أهلها الأندلسيين، نتيجة للضغط الذي مورس عليهم من قبل الكنيسة الاسبانية. فقد روى التمغروطي في النفحةالمسكية أن مدينة الجزائر كانت كثيرة الكتب، وأنه لا يضاهيها في ذلك بلد من بلدان إفريقيا ولا سيما كتب الأندلسيين.[49]

ولم يختلف مصير مكتبات المدن الجزائرية بعد الاحتلال عن مصير مثيلاتها في العالم الإسلامي، حيث اضطر أصحابها إما لتهريبها أووقفها على مكتبات إسلامية، مثل الذي حدث للشيخ محمد بن إسماعيل الذي أوصى أن تحمل مكتبته إلى الروضة النبوية مع جثمانه.[50]

ثم نفيت مكتبات بأكملها مع أصحابها، كما حدث ذلك مع المفتي ابن العنابي من العاصمة، فحمل معه بعض كتبه إلى مصر وهي لا تزال إلى الآن تحمل ختمه وخطه. وكذلك الشأن بالنسبة للشيخ الصديق بن يحي الذي هاجر من نواحي قسنطينة إلى تونس ومعه كل الوثائق التاريخية.

أما ما كان بالناحية الغربية مثل تلمسان فأغلب الظن أنها قد عرفت طريقها نحوالمغرب الأقصى بفاس (القرويين) وغيرها.[51]

وبعد، فهذه خلاصة موجزة عن أزهى عصور حرفة الوراقة في الحضارة العربية الإسلامية، والجزائر بشخصيتها المتميزة بها واحدة من الدول العربية والإسلامية التي ساهمت تاريخيا – وما زالت – في بناء الحضارة الإسلامية ولا سيما في الجانب الثقافي والعلمي، لذلك فإن الكثير من البيوت الجزائرية في شمال البلاد وجنوبها غنية خزائنها بالمخطوطات فضلا عن الزوايا العريقة والمساجد العتيقة، فحقيق بنا إذن أن نهتم بهذا الإرث النفيس بطريقة أوبأخرى فننفض عنه الغبار ونحفظه من عوامل التلاشي لنجعله في خدمة الفائدة العامة حاضرا ومستقبلا.

الهوامش:

1. سورة القلم الآية 1
2. بسبب استشهاد سبعين صحابيا من حفظة القرآن الكريم في واقعة اليمامة سنة 12 من الهجرة.
3. الفضل بن يحي توفي 198هـ /808م أخوالرشيد بالرضاعة.
4. مقال : الورق أوالكاغد : صناعة في العصور الإسلامية. كوركيس عواد. مجلة المجمع العلمي العربي. سنة 1948م المجلد 23 الجزء 3 ص 409.
5. المرجع السابق ج 3 ص 409.
6. البردي : نبات مائي كالقصب.
7. انظر مقال : الورق أوالكاغد. ج3 ص 412.
8. تاريخ الهند. البيروني. ص 81.
9. سورة الأنعام الآية 7.
10. سورة الأنعام الآية 91.
11. مجلة المجمع العلمي. المجلد 23. الجزء 3 ص 416.
12. بلاد الهند في العصر الإسلامي منذ فجر الإسلام حتى الغزوالتيموري. عصام الدين عبد الرؤف الفقي. دار الفكر العربي. 1996 م ص 298.

13. انظر الورق أوالكاغد. ص 417.

14. المرجع السابق. ص 413.

15. كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك. تقي الدين أحمد بن علي المقريزي. صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. 23 ماي 1957م القسم الثاني الجزء 1 ص 497 – 498.

16. المقدمة لابن خلدون. تحقيق علي عبد الواحد وافي. ط 3 (1979). دار نهضة مصر للطباعة والنشر. ج 2 ص 974.

17. الأنساب. السمعاني عبد الكريم بن محمد. بغداد مكتبة المثنى. 1970 .

18. انظر الوراقة والوراقون في الإسلام. حبيب زيات. مجلة المشرق. السنة الحادية والأربعون. تموز. أيلول 1947. ص 316.

19. تاريخ بغداد. الخطيب البغدادي. مكتبة الخانجي. القاهرة. 1931. ص 329.

20. معجم الأدباء. ياقوت بن عبد الله الروحي الحموي. دار المأمون 1936 ط 2 ج 18 ص 213 21 – الطبقات الكبرى. محمد بن سعد. دار بيروت للطباعة والنشر (1957- 1960) ج1 ص 6 22 – الفهرست. ابن النديم أبوالفرج محمد بن إسحاق بن يعقوب. العربي للنشر والتوزيع القاهرة (1991) ج1 ص 355.

21. وفيات الأعيان وأنباء الزمان. ابن خلكان أحمد بن محمد. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. مكتبة النهضة المصرية (1948) ط 1 ج 1 ص 188.

22. الفهرست. ابن النديم. ج1 ص 188.

23. في نسب وأخبار محمد المهزيل (المزيلي ؟) إضافات منها أنه غريسي المنشأ (قرب مدينة معسكر) القاطن بالقشاشية (أي المدرسة القشاشية التي كانت بالعاصمة خلال العهد العثماني والتي هدمها الفرنسيون هي والجامع الذي يحمل نفس الاسم، جامع القشاش. ويضيف أنه جزائري الإقليم – نسبة إلى مدينة الجزائر –. وأسرة الدائج معروفة في معسكر أوائل هذا القرن، وكان أحدها متوليا للتدريس في جامع معسكر.

24. تاريخ الجزائر الثقافي. أبوالقاسم سعد الله. ج 5 ص 392 – 394.

25. المرجع السابق. ص 394 .

26. المرجع السابق.

27. المرجع السابق ص 395 .

28. المرجع السابق ص 396.

29. انظر المرجع السابق. ص 396.

30. دليل الحيران. البوعبدلي. طبعة الجزائر 1978. انظر تاريخ الجزائر الثقافي ج 5 ص 397

31. تاريخ الجزائر الثقافي. ج 5 ص 397.

32. المجموع رقم 5093 في المكتبة الوطنية. تونس. يرجع المخطوط إلى المكتبة الأحمدية بالجامع الأعظم (الزيتونة) وعليه تحبيس رسمي. انظر تاريخ الجزائر الثقافي. ج 5 ص 398.

33. تاريخ الجزائر الثقافي. ج 5 ص 398

34. عن ذلك انظر ليكليرك عن جامع العين البيضاء بمعسكر في المجلة الأفريقية 1859 ص 42 – 46. واسم هذا الشخص هوحموبن سارمشق المولود بتلمسان والمقيم عندئذ بالجزائر. انظر تاريخ الجزائر الثقافي .ج 5 ص 399 .

35. انظر المرجع السابق. ج 5 ص 400 .

36. المرجع السابق ص 401.

37. الورق والوراقون وأثرهما في ظهور خزائن المخطوطات. محمد صاحبي. المجلة الجزائرية للمخطوطات. العدد (1) 1424 ربيع الثاني. جوان 2003. ص 126 .

38. انظر المرجع السابق. ص 127.

39. انظر المرجع السابق ص 128.
40. المرجع السابق ص 128.
41. المرجع السابق. 129.
42. المرجع السابق ص 130.
43. ياقوت الحموي. معجم الأدباء. ج 2 ص 400.
44. راجع ذلك في الفهرست لابن النديم. ج 1 ص 519 – 529.
45. الفهرست ص 598.
46. تاريخ الجزائر الثقافي. ج 1 ص 296.
47. المرجع السابق. ص 286.
48. الورق والوراقون. محمد صاحبي. ص 133.
49. المرجع السابق. ص 133.